

فن الرحلة في الأدب الجزائري القديم

تمهيد :

الرحلة قديمة قدم الإنسان ، دورها مهم في الكشوفات الجغرافية، فضلا عن خلقها لجسور التواصل بين الشعوب بعضها ببعض واكتساب معرفة الواحد بالآخر، ولاسيما ماتعلق بالأجناس ،العادات والتقاليد والأعراف المميزة لهذه الشعوب.

وقد ورد في القرآن الكريم ما ينبئ على أن العرب في الجاهلية مارست الرحلة وفعلت دورها اقتصاديا ،ونقصد بذلك رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانت قريش تقوم بهما تباعا نحو اليمن والشام. يقول الله تبارك وتعالى في تنزيله الكريم: "إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف"1. مع ظهور الإسلام توسع أفق الرحلة وتخصب دورها من خلال مشروع الفتوحات الإسلامية الحضارية والمعرفي2.

أهم الرحلات لدى العرب المسلمين تلك التي قصد أصحابها البقاع المقدسة لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام ،ضف إلى ذلك الرحلات العلمية حيث كان من تقاليد المسلمين أخذ العلم من محاضنه للحصول على الإجازة من العلماء بعد مجالستهم وحصول الملكات بالتلقين مباشرة.3 نذكر أن فضاءات الرحلة ومحطاتها كانت كثيرا ما تتيح التقاء المشايخ وطلاب العلم مشرقا ومغربا مما وفرّ فرصة هامة لتعارف العلماء بعضهم ببعض .

انتقل هذا الفن إلى المغرب حيث تفوّق كتاب شمال إفريقيا في أدب الرحلة ، عندما شهد هذا الفن ازدهارا ملحوظا بداية من القرن الحادي عشر الميلادي. ربما مردّ هذا التميّز إلى طول المسافة بين المغرب وبلاد المشرق التي كانت في الغالب مقصد الرحلات المغربية ، لذا فمسارات الكتابة هي الأخرى ستطول بالرحالة ، وهذا هو السبب الذي جعل هذا الفن يزدهر مغاربيا . ونلاحظ أنه من دواعي تدوين الرحلات تلبية طلب الآخرين من حكام ، أصدقاء أو أقرباء ، الرغبة في تقديم الفائدة العلمية للقراء المتلقين من خلال الكم المعرفي الذي تختزنه المدونة الرحلية ، التعريف الجغرافي للبلدان ، الكشف عن طبائع المجتمعات وعاداتهم،

ذكر أخبار الأمم السابقة والمعاصرة للرحالة الكاتب ، الخوض في التاريخي والسياسي والاقتصادي انطلاقا من فضاء المكان، الاستفادة من تجارب الآخرين، تدوين سير العلماء والمشايخ من خلال أسلوب الفهرسة ، التعبير عن الذات ومكوناتها والرغبة في المشاركة في أدب الرحلة على منوال المشاركة.

- مفهوم أدب الرحلة :

بدأ الاهتمام بالرحلات بداية من القرن الثالث الهجري، ثم سرعان ما عرفت الرحلة بداية من أواخر القرن السادس الهجري تحولا في اتجاه الكتابة حيث بدأ السارد يهتم بتدوين يومياته . وأصبح طابع الكتابة فيها يقوم على رصد الخبر . يُعرض النص فيها بضمير المتكلم المنفتح على العالم، فيها يتجدد الزمان والمكان، وأصبحت موسومة بالتشويق والمتعة ، غير أن الكاتب فيها ملزم بدرجة كبيرة بالصدق. إذن النص الرحلي هو مجموعة من الصور السردية، والذاتية ، وظيفته تقديم المعرفة موصوفة، بغرض تقريبها إلى ذهن القارئ.

أصبحت الرحلة شكلا أدبيا يقوم على محكي السفر، لأنها نابعة أصلا من بنية السفر، تعنى برصد الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب . تحددت خصائص هذا الشكل الأدبي واتجاهاته تبعا للمرجعية التي ينتمي إليها الرحالة الكاتب. لقد شدّ هذا الفن كُتّابا من مشارب مختلفة ، الأمر الذي جعل المدونة الرحلية موسوعة تتقاطع على متنها العديد من الأنساق: اللغوي، التاريخي ، الجغرافي ، العلمي والأدبي...

أصبح هذا الشكل الأدبي الثري الجديد ينحو نحو تطوير أدواته من خلال تجريب الكتابة فيه، لاسيما وأن الذات الإنسانية مولعة بالخبر ومستجداته مع التذكير بمركزية الخبر في الرحلة، حيث يعد أحد مصادر المعرفة فيها. مما يعني أن هذا الشكل الأدبي لم يظهر كغيره من الأشكال الأدبية الأخرى" ناضجا مكتملا لأول وهلة بل كان الظهور محكوما بالظروف والمستجدات."4 والاهتمام بهذا الشكل الأدبي هو محاولة لتوسيع مفهوم الأدب وأشكاله المتناسلة .

ذكرنا أنه ينبغي أن يكون النص المنتمي إلى أدب الرحلة "نابعا من بنية السفر قبل أن يكون نابعا من موضوع السفر الذي قد يتوفر في العديد من النصوص سواء انتمت إلى المتن الرحلي أو لم تنتم إليه."5 يحرص فيه الرحالة على تسجيل محطات السفر المتتالية من خلال خارطة جغرافية تشكل خلفية لعناصر عديدة

تخلخل خطية هذا المسار الجغرافي. فيه يتداخل الشعري بالثنوي و الخطاب الشرعي بالتخييل. معنى ذلك أن نص الرحلة يضع متلقيه "أمام أنساق متعددة في البناء والسرد والوصف وفي التشكيلات الخطابية المختلفة إنه خطاب مهجن تتفاعل فيه الأنظمة اللغوية والأسلوبية والصوفية بحوارية النصوص والخطاب."6

وُسم هذا المفهوم قديما بمسمّيات نَحَتْ به نحو التاريخي والجغرافي ، أما حديثا ومن خلال التسمية: "أدب الرحلة " نشعر أن هناك ثمة تفكير نقدي يجنح نحو تجنيس هذا النوع من الكتابة وإدراجه ضمن المنظومة الأدبية السردية. وفي سياق متقارب هناك من يستأنس بتسميته بالنص الرحلي لأنه بالدرجة الأولى نص لغوي مفتوح على خطابات متلونة. ويظل هذا المفهوم ملتبسا 7، ويذهب الكثير من المهتمين بهذا الحقل إلى توظيف المفهوم الأكثر تداولاً وهو "أدب الرحلة" على اعتبار أنه نسيج لغوي أدبي يتغذى من مجموعة من المعارف يوظفها بانسجام ضمن خطابه.

-أهم المدونات الرحلية المطبوعة:

مايزال البحث في حقل أدب الرحلة في حاجة ملحة إلى دراسات علمية متعددة تعنى بمعالجة بنية هذا المتن والوقوف على مستويات إبلاغه للقارئ. ولم يعد كافياً الحديث عن الرحلة من الناحية المضمونية ، بل ما نتوخاه هو الاشتغال على الوجود النصي للمدونة الرحلية للكشف عن أدبيتها مع الكشف عن تقاطعاتها مع أنماط السرد الأخرى . وتفعيلاً لمسعانا النقدي نطمح إلى مقاربة الرحلة الورثلانية مقاربة جمالية نظراً لزخم حملتها المعرفية. لكن رأينا من المفيد في هذا المقام أن ننتقل بدءاً من عرض أهم المدونات الرحلية الجزائرية القديمة. لأن ذلك من شأنه أن يعمق رؤيتنا بخصوص الأدب الرحلي الجزائري القديم.

تعدّ رحلة بكر بن "حماد الزناتي التيهرتي"(200هـ-296هـ) الذي عاش في كنف الدولة الرستمية التي كانت عاصمتها تيهرت من أقدم الرحلات العلمية وجهتها كانت نحو تونس، حيث درس في القيروان ،منها واصل مسار رحلته نحو بغداد ، أين حظي بشرف لقاء "الخليفة المعتصم بالله" الذي قرّب شاعرنا منه. مدح هذا الأخير الخليفة بأجود القصائد . عاد إلى تونس ومكث فيها مدرّساً، إليه توافد طلاب العلم من المغرب والأندلس.نشير إلى أن هذه الرحلة لم تدون8.

رحلة المقرّي:

هي لصاحبها أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقرّي التلمساني . المولود سنة :986هـ في تلمسان و المتوفي في القاهرة سنة:1041هـ9 . يعدّ المقرّي من أبرز المؤرخين المسلمين ، أشهر كتبه : "نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب". رحلته التي تعيننا موسومة بـ: "رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق". اعتنى بتحقيقها وضبطها حديثاً محمد بن معمر. نشرت سنة:2004 بمكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ،سيدي بلعباس ،الجزائر. الغرض منها أداء مناسك الحج .تعرض المقرّي في رحلته لمسائل فقهية ،وصف الحياة الثقافية والعلمية للمجتمعات التي زارها .ضمّت مدونته فهرسة لأسماء العديد من العلماء . وهي لهذه الخصائص وغيرها جمّة الفائدة .

رحلة المجاجي الحجازية:

هي لصاحبها عبد الرحمن بن محمد المجاجي من مجاجة (تقع بالقرب من مدينة تنس) .تعلم بزوايتها ومنها قصد تلمسان ثم فاس ،عاد إلى مسقط رأسه . ارتحل إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج سنة:1063هـ وهو التاريخ الذي ذيل به رحلته . وبذلك يكون قد عاش في القرن الحادي عشر الهجري01 فهرستها في المكتبة الوطنية حملت عنوان : "رحلة إلى مكة" . وهي منظومة على وزن البحر الطويل . مبتورة البداية أي مرحلة الذهاب ، أما الجزء المتوفر فيمثّل مرحلة الإياب .رصدت رحلة المجاجي مسارات الطريق من الحج إلى الجزائر العاصمة مشاقها وأهوالها ، مروره بالمزارات ،ولقاءاته بالعلماء ومجالسته إياهم.

رحلة أبي راس الناصري:

هي لصاحبها محمد بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر المعسكري المعروف بأبي راس .ولد سنة:1150هـ قرب جبل كرطوس في مدينة سعيدة .تنقل بين مدن عدة .قام برحلتين إلى الحجاز لأداء فريضة الحج 11. ألف رحلته الجامعة عن خدمة العلم والدين بأسلوب أدبي فني . زار في رحلته هذه الجزائر ،قسنطينة، تونس،ثم القاهرة والحجاز. هناك التقى بالعديد من العلماء .سجل هذه الرحلة في الباب الثالث من ترجمته الذاتية:"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" 12.نشير أنه لم يول للخارطة الجغرافية أدنى اهتمام في مقابل الإهتمام الذي أبداه في مناقشة

العديد من المسائل مثلما أدلى بها العلماء والقضاة الذين اجتمع بهم في مسيرته الرحلية.

رحلة ابن عمار:

هي لصاحبها أحمد بن عمار الجزائري ، فقيه و أديب وشاعر .عزم على الارتحال إلى البقاع المقدسة سنة:1166هـ.ثم عاد إلى مصر ومنها رجع نهائيا إلى الحجاز ،حيث توفي في المدينة المنورة ،تؤشر المعطيات التاريخية على إدراكه للقرن الثالث عشر الهجري حيث اجتمع بأبي راس الناصري في الجزائر سنة:1204 13.رحلته موسومة بـ:"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" المعروفة برحلة "ابن عمار". ولا نعرف من آثاره إلا رحلته ، المعلوم منها عبارة عن مقدمة الرحلة فقط،ترجم فيها ابن عمار لمعاصريه والذين سبقوه من العلماء والمشايخ .

رحلة ابن حمادوش الجزائري :

هي لصاحبها عبد الرزاق بن محمد بن محمد الملقب بابن حمادوش ولد بمدينة الجزائر سنة 1107هـ وتوفي في التسعين من عمره في مكان وتاريخ مجهولين .درس العلوم الشرعية واللغوية واتجه إلى العلوم الرياضية والطبية...14 رحلته موسومة بـ:"لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال". جزؤها الأول مفقود مما يعني أن تاريخ الشروع في كتابة المدونة مجهول.أما الجزء المتوفر منها دوّن فيه الرحالة رحلته إلى المغرب الأقصى بحرا.

وصف ابن حمادوش الأماكن الجغرافية التي ارتادها وصفا دقيقا مركزا على عادات الجماعات فيها في المناسبات الدينية خاصة .تتقاطع على جسد هذه المدونة العديد من الأخبار السياسية ، الاجتماعية والثقافية ... أما بخصوص الأجناس والأشكال الأدبية فيها فهي متعددة؛ إذ تحتوي هذه المدونة الرحلية على المنظوم والمنثور بما في ذلك اليوميات ، السير، المقامات، الرسائل،الأخبار...

رحلة ابن هطال التلمساني:

هي لصاحبها أحمد بن محمد بن هطال التلمساني،كان كاتبنا خاصا عند الباي محمد بن عثمان الكبير ومبعوثا في المهمات الخارجية. رافقه في غزوته على

الأغواط. استشهد ابن هطال في معركة وقعت بين العثمانيين وابن الشريف الدرقاوي سنة: 1219هـ/15، انتصر فيها الدرقاوي انتصارا ساحقا. الرحلة موسومة ب: رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري". سجل ابن هطال في مدونته هذه أطروحات مختلفة سياسية، عسكرية، جغرافية، اجتماعية، أدبية... تفيد الدارس في التاريخ الجزائري خلال حكم العثمانيين للجزائر معتمدا على سرد الوقائع وذكر الحوادث مثلما شاهدها.

الهوامش:

1- سورة قريش، الآية: 1-2

2- ينظر : قنديل فؤاد ، أدب الرحلة في التراث العربي ، (ط.2)، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2002، ص.30.

3- ينظر: ابن خلدون ، المقدمة، دار بن الهيثم، (ط.1)، 2005، ص.478.

4- صحراوي إبراهيم ، السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنىات، (ط.1)، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، 2008، ص.47.

5- مؤذن عبد الرحيم ، الرحلة في الأدب المغربي-النص ، النوع ، السياق ، (د.ط)، المغرب ، أفريقيا الشرق، 2006، ص.6.

6- لشكر -حسن ، المتكلم و استراتيجيات الخطاب في الرحلة، في كتاب الخبو محمد، نجيب العمامي محمد: المتكلم في السرد العربي القديم، ص.153.

7- ينظر : حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي -التجنيس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل سلسلة كتابات نقدية، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 2002، ص.39.

8- بكر بن حماد التاهرتي، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، تقديم ، جمع وشرح: محمد بن رمضان شاوش، (ط.1)، الجزائر ، المطبعة العلوية ، 1966، ص.43-44. (نسخة إلكترونية).

9-أحمد المقري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، (ط.1)، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ، 1998 ، ص. 3.

10-ينظر: حبار مختار، الخطاب الأدبي القديم في الجزائر-دراسة بيبلوغرافية، منشورات مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر جامعة وهران ، ص.54-55.

11-ينظر : أبو راس الناصري محمد ،فتح الإله ومنتها في التحدث بفضل ربي ونعمته ، تحقيق:محمد بن عبد الكريم الجزائري ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1990،ص.184.

12-ينظر المصدر السابق الباب الثالث.

13-ينظر : بوداودي نادية، اتجاهات النثر الجزائري ، ص. 43.

14-ابن حمادوش الجزائري عبدر الرزاق ، رحلة ابن حمادوش الجزائري، تقديم وتحقيق وتعليق :أبو القاسم سعد الله ،،(د.ب.ط)، الجزائر ، عالم المعرفة 2011، ص.9.

15-ينظر : ابن هطال التلمساني أحمد ، رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الجزائري ،تقديم وتحقيق :محمد بن عبد الكريم ،(ط.1) ، القاهرة عالم الكتب ، 1969 ، ص.13-14.

المحاضرة الحادي عشر

فن الرحلة في الأدب الجزائري القديم(2)

(الرحلة الورثلانية أنموذجا للدراسة)

تُعرف هذه الرحلة بـ: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

أ- التعريف بصاحب الرحلة:

ولد العلامة الحسين بن محمد السعيد الورثلاني سنة 1125هـ-1713م). نشأ وتعلم بمسقط رأسه ببني ورثيلان . أخذ العلم عن مشايخها. رحل إلى مصر والحجاز. حظي بتربية جعلت منه علما من أعلام المسلمين. أهم مؤلفاته: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وتعرف بالرحلة الورثلانية يصف فيها رحلته إلى الديار المقدسة سنة 1179هـ. توفي في قريته ودفن فيها سنة: (1193هـ-1779م) . وقبره معلوم إلى الآن 1 .

ب-طبغات المخطوط:

خرج المخطوط إلى الطبع مع تعليقات بن مهنا القسنطيني سنة: (1321 هـ-1903 م) في تونس . قام بتصحيحها الشيخ الشنوفي والشيخ الأمين الجريدي . النسخة مشتملة على ثلاثة أجزاء، في الجزء الأول 250 صفحة وفي الجزء الثاني 214 صفحة وفي الجزء الثالث 260 صفحة .بعدها بسنوات قليلة طبعت سنة (1326هـ-1908م) بمطبعة "بيير فونتانا" الشرقية في الجزائر تحت إشراف العلامة ابن أبي شنب. نفس الطبعة أعيد تصويرها وطبعت بدار الكتاب ببيروت لبنان سنة (1394هـ-1974م)2. والطبعة التي بين أيدينا قام بإخراجها إلى الوجود "محفوظ بوكراع" و"عمار بسطة" -مع الاحتفاظ بتعليقات بن مهنا وصدرت سنة: 2011.

ج- مصادر الرحلة الورثانية:

مصادر الرحلة متعددة : منها ما هو ديني ممثلا في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . ومنها ما هو بشري ممثلا في مقولات مأثورة عن السفر، أقوال العلماء والفقهاء والمتأديبين، مصادر التراث العربي، الاعتماد على رحلات سابقة زمنيا على هذه الرحلة، نقل الأحداث اليومية مما شاهده وسمعه الرحالة أثناء سفره مع الركب، الحكايات والأساطير القديمة والاعتراف مما تحفظه الذاكرة الفردية والجماعية ...

د- البنية المضمونية للرحلة:

تعد الرحلة الورثانية أهم رحلة جزائرية اعتنت بتسجيل الأخبار التاريخية للبلدان العربية، ووصف الفضاء الجغرافي. والعنوان مؤشر على ذلك. نبه فيها الورثاني إلى مشاقها وتعدد أخطارها: كاحتياج الرحالة إلى الماء ، شدة الحرارة ، الأمراض، الوفاة، قلة الكلا للدواب...

اهتم الرحالة فيها بتدوين رحلته نحو الحجاز فعدد لنا المناطق الجغرافية التي اجتازها، ثم عدد لنا نقاط العبور من مكة إلى المدينة، كما عدد آبار مكة المزاراة من قبل الحجيج يقول : " فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع والقفار والديار ..والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان ..من المشرق والمغرب ...أنشأت رحلة عظيمة ..فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار ،مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة ...بما فتح علي ، أو منقولا من الكتب المعتمدة "3.

أسهب الورتلاني في وصف بعض المدن الداخلية والخارجية مثل حديثه عن مدينة بجاية ومكانتها يقول : "وبالجملة ففضل بجاية مشهور ، وعلم أهلها مذكور، قال الشريف التلمساني : دخلت "بجاية" في القرن الثامن الهجري فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها ،فصرت أكتب في كل مسجد سؤالا وأتركه هناك ،حتى وصل أمره إلى السلطان."4 .

واحتلت مصر النصيب الأوفر في هذه الرحلة لأنها مقصد طلاب العلم، حيث نقل "الورتلاني" أهم مشاهداته فيها ، ثم يأتي ذكر أهم موانئ الحجاز: ميناء جدة، فضلا عن وصف منى والمدينة، الروضة النبوية ومقابر الصحابة....

لقد رسم الرحالة خارطة جغرافية للطريق من خلال ذكر المناطق المتعاقبة التي ارتادها الركب ،وصفها ووصف أعلام كل منطقة : شيوخها ومزاراتها المعروفة .يقول : "وقد دخلنا "طولقة" فاجتمعنا بها أيضا مع أهل الفضل والعلم ، وزرنا أيضا الشيخ المذكور ، والولي المذكور سيدي عبد الرحمن الأخضرى في قريته المشهورة ، فلما وصلنا وجدته كأنه حي في قبره.."5

ه- سرديّة الرحلة الورتلانية :

الرحلة الورثانية وسيلة لتطهير الذات من خلال أداء الركن الخامس من أركان الإسلام. لها مساران الأول: مسار الذهاب : تميزت الكتابة عن مسار الذهاب بالتركيز و الإفاضة. أما الثاني: فمسار الإياب: تميزت الكتابة عن هذا المسار بالاختصار ،التكثيف والتجاوز.

يقوم الإخبار في هذه الرحلة على أسلوب التقرير الذي يحتفل بالأهم ، الضروري والمفيد من جهة وبالاختصار والتكثيف من جهة أخرى. مقصدية المؤلف منها أداء فريضة الحج، أما مقصدية النص فردّ الاعتبار للحدث التاريخي المحلي والعربي، الأمر الذي يقودنا إلى القول إن الأنا النصية في هذه المدونة الرحلية تختلف عن أنا المؤلف، من حيث إن الأولى (الأنا النصية أي السارد) تحقق للثانية (أنا المؤلف) الشهرة . إن انتقال تجربة الحج إلى مستوى الكتابة، يعني إعادة اكتشاف هذه التجربة الروحية بملاساتها الكثيرة عن طريق السرد .

إن السارد هنا هو "علامة نصية وعلامة مرجعية ، ومستويات التداخل بين السارد والرحالة قائمة".6. فالرحالة إذن هو السارد والمتلفظ، يتمتع بسلطة سردية مطلقة ، وهو حاضر من بداية النص إلى نهايته ومتحكم في كل تضاريس السرد. فهو في هذه الرحلة "لا يتردد في لملمة خيوط المعرفة في ذاته لتصبح خاضعة لسلطة تمر عبر قنواته السردية المتحكمة في طبيعة الحكي وأهدافه". 7

من جانب آخر يعد هذا النص أداة من أدوات التعامل مع المكان ، حيث تمت محاورة المكان بصيغ مختلفة، ولا سيما أن الفضاء الجغرافي في هذه الرحلة هو بؤرة مركزية للسرد. إن اختيار أماكن بعينها له ما يبرره جماليا فتعدد المزارات ومدافن الأولياء الصالحين والخوض في تعداد كراماتهم، كل ذلك يؤشر على التعالقات بين الرحالة ومحطات الطريق الرمزية وصولا إلى رحلة الحج ،مما يعني أن تحديد الخارطة المكانية التي رسمت الرحلة حدودها متعلقة بالمحطات الرمزية. من ثم يصبح استناد الرحلة على المكون المكاني له مواصفات محددة

"هي إذن عملية إنضاج لحظة الوصول إلى المحطة ما قبل الأخيرة مروراً
برحلات صغرى تداخل فيها الديني بالدنيوي"8

يتحرك السرد في الرحلة الورثلانية من المكان نحو الشخصية الفاعلة فيه- قديماً أو
حديثاً- ليعرض إنجازاتها في حدود علاقاتها بالشخصيات الأخرى ، فنتولد
الأحداث التاريخية في ذهن السارد وتتشابك، حتى أنه يتعذر عليه ربط السابق
بالاتي، فيضطر السارد إلى القول: "ولنرجع إلى ما كنا بصده... "9 .

بعبارة أخرى نقول إن السرد الرحلي في هذه الرحلة الحجية يمتلئ بكمّ ملحوظ من
المحطات السردية يُعبّر عنها بتراكيب محددة وهو ما يفسّر كثرة أسلوب
الاستطراد "الذي يتوقف عند المحطات السابقة الصغيرة لإيقاع السرد "10 ، إلى
جانب طغيان أسلوب الإطناب، ونحسب أن مرده " إلى سيطرة النزعة التعليمية
من خلال تكاثر المرئيات أو الموصوفات من جهة ، ومن خلال تشغيل ذاكرة
الرحالة -من جهة ثانية- عن طريق استدعاء محفوظاته ومعارفه تعميماً للفائدة أو
إضاءة لما يرويه."11

يتوسع المكان ويتوسع إثر ذلك الحدث وتتعدد دوائر التاريخ وتتداخل الشخصيات
وتتشابك الأحداث التاريخية وتتعدد... وهكذا من حدث إلى آخر. فمثلاً لدى خروج
الركب من مدينة بسكرة ووصوله إلى منطقة سيدي عقبة عاد السارد بذاكرته إلى
منجزات "عقبة بن نافع" التاريخية وصراعه المرير مع الأمازيغ قبل أن تفتح
شمال أفريقيا نهائياً . استدعى هذا الحدث التاريخي المنبعث أساساً من الفضاء
الجغرافي توالد الحدث التاريخي وتناسله ، حيث استغرق الصفحات الطوال من
أجل الإحاطة بجوانبه . وقد تعرض الكاتب في خلال ذلك إلى وفاة "عقبة بن
نافع"، قتل "كسيلة البرنسي" ، وفاة "زهير بن قيس البلوي" ، ولاية "حسان بن
النعمان الغساني"، التصدي الذي أبدته "الكاهنة" ثم مقتلها وسقوطها في البئر بعد
قطع رأسها.12

في مستوى آخر يلاحظ متلقي هذا النص الرحلي أن السارد كان كثيرا مايتحول إلى شاعر.مرددا عبارة "وفيه قلت" ،مدرجا بعدها الأبيات الشعرية التي نظمها بخصوص هذه الشخصية وتلك¹³. " والشعر هنا أدى دورا في خلق لحظات التوازن بين ضغط العالم الواقعي على النثر وبين ضغط الجانب الوجداني الذي يسمح بمقاربة المكان من زاوية الإحساس والعاطفة.¹⁴

يتخلل مسار السرد أسلوب الكرامات والذي يتداخل في الكثير من الأحيان بالحقل الديني المجسّد في الأضرحة والمزارات والزوايا وفضاءات المساجد وروابط الصوفية، "وهو أسلوب لا يكتفي فيه الرحالة بتقديم الكرامات و الخوارق ، بل يتبنى الكرامة ذاتها شكلا ومضمونا إلى الحد الذي يصعب فيه التمييز بين أسلوب الرحالة وأسلوب الكرامة المنقول عن الآخر سردا وعرضا.¹⁵

يقول : "وسيدي محمد هذا مجاب الدعوة وهو في "جبل بني يعلى" ضريحه مشهور يزار ،ومن أراد قضم عدوه الظالم فيسأل الله بجاهه عند ضريحه ، وقد جربت ذلك مرارا فوجدته كذلك -أحيا قلوبنا الله بجاهه أمين-"¹⁶.

إلى غير ذلك من التنويعات السردية ما بين مسرود السماع وبين مسرود الرؤية العيانية، بين المحكي العجائبي وبين المحكي الواقعي ، بين محكي السارد ومحكي الشخصيات..

عموما لاحظنا أن النص الرحلي الجزائري القديم يتأسس على مرجعية عصر الكاتب وعلى الثقافة العربية الإسلامية عامة ، توخت النصوص التي أتينا على عرضها إلى تصنيف مختلف مجالات المعرفة انطلاقا من اهتمام كاتبها بالفهرسة التي تجسدت عناصرها في :الأولياء ومراتبهن، الصوفية وطبقاتهم، الشيوخ والعلماء-الزوايا ،الأحداث الماضية والحاضرة . فضلا عن ممارسة الكاتب للأسلوب السير ذاتي وما يدخل تحت بابه من كتابة المذكرات واليوميات.

الهوامش:

1- الورثلاني الحسين بن محمد ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ،
المجلد الأول ، تعليق :ابن مهنا القسنطيني ، تقديم : محفوظ بوكراع وَ عمار بسطة
، الجزائر ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع ، 2011 ، ص.15-16.

2- الورثلاني ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ص.11.

3- م س، ص. 34-35-36.

4- م س، ص.87.

5- م س، ص.43.

- 6- لشكر حسن ، المتكلم و استراتيجية الخطاب في الرحلة ، ص.160.
- 7- مؤذن عبد الرحيم ، الرحلة في الأدب المغربي، ص.74.
- 8- م س ، ص.17.
- 9- الورثلاني ، نزهة الأنظار، ص.180.
- 10- ينظر: م س، من ص.213 إلى ص.232.
- 11- مؤذن عبد الرحيم ، الرحلة في الأدب المغربي، ص.21.
- 12- م س ، ص.22.
- 13- ينظر على سبيل المثال لا الحصر :الورثلاني ، نزهة الأنظار، ص.133-135-136-137-138-139-140-141-142.
- 14- عبد الرحيم مؤذن، الرحلة في الأدب المغربي ، ص.12.
- 15- م س، ص.31.
- 16- الورثلاني ، نزهة الأنظار، ص.121.